الإبداع أعدل الأشياء
قسمة بين البشر

لعل من أهم التساؤلات التى تواجه المشتغل بالإبداع هو تعدد معانى الإبداع وغموضها فى كثير من الأحيان. ، وهذا التعدد وذلك الغموض يثير الكثير من التساؤلات، ولعل من أهمها:

هل الإبداع معطى أولى يولد الإنسان وهو مزود به؟

وبمعنى آخر:

هل الإبداع جوهر وجود الإنسان؟ أم أننا نكتسبه بحكم النشأة والبيئة؟

أم أن هناك علاقة جدلية بين ما نولد ونحن مزودون به وبين الواقع الذى نعيشه بما ينطوى عليه من محددات بيئية؟

وهل العقل الإنسانى واحدٌ أم أنه متعدد؟ فإذا كان العقل الإنسانى متعددًا لزم أن يكون هناك تشكيلة متنوعة من العقول، هذا عقل إفريقى قائم بذاته، ومقطوع عن غيره من العقول، وذلك عقل أوربى، وهذا أمريكى.

وللإجابة عن هذه التساؤلات، نستشهد بالسيرة الحضارية الإنسانية التى تدلنا على أن الإبداع هو جوهر وجود الإنسان، وهو المكون الراسخ

الذى ميز الوجود الإنسانى عن باقى الموجودات، فلم يكن الانتقال من عصر الصيد إلى عصر الزراعة - الذى يؤرخ التاريخ الحضارى ببدايته - محض صدفة، بل جاء نتيجة جهد إنسانى إبداعى استلزم آلاف السنين، فبفضل تكنيك الزراعة نشأت عدة علوم، فمن الأشكال المنتجة فى عملية الغزل نشأت الهندسة، ومن عدد الخيوط التى تنطوى عليها هذه العملية نشأ علم الحساب، ومن الحركة الدائرية التى تنطوى عليها عملية النسج تأسس علم الميكانيكا واخترعت وسائل المواصلات.

ولنا أن نعرف أن البشرية استغرقت ما يقرب من أربعة ملايين سنة لكى تنتقل من عصر الصيد إلى عصر الزراعة، أما الانتقال من عصر الزراعة إلى عصر الصناعة وإلى عصر ما بعد الصناعة فقد استغرق ١٤٠٠ سنة ومعنى هذا أن الإبداع يختزل المسافات الزمنية.

إن ما نعيشه من تطورات علمية وتكنولوجية ومعلوماتية جاء نتيجة جهد إبداعى إنسانى استغرق آلاف السنين؛ فمر الإنسان بمراحل كان تفكيره فيها نرجسيًا. أى عاشقا لنفسه، متمركزا عليها، غير عابئ بالآخرين، وكان يعتقد فى السحر، ثم مر بمرحلة الطوطمية tootemism وعبادة الطبيعة، حتى وصل إلى بدايات تشكيل الضمير والموضوعية مع ظهور الزراعة والحضارة فى مصر والصين والهند وفلسطين واليونان والمكسيك.

وهذه الحضارات هى نتاج عقل الإنسان وخياله الخصب ووعيه بذاته، وبهذا الوعى، وبذلك العقل، وبتلك القدرة على التخيل عاش

الإنسان في حالة من التنافر مع الطبيعة، وفى حالة من عدم الانسجام، وفى حالة من عدم التكيف مع الطبيعة. وعلى الضد من ذلك الوجود الحيوانى، فهو فى حالة انسجام وتناغم Harmony مع الطبيعة، لأنه جزء من الطبيعة لا يستطيع أن يتجاوزها، وليس له عقل أو ضمير أو وعى بذاته.

وقد جعلت هذه القدرات من الإنسان كائنا فريدًا، فى الكون بأسره، فرغم أنه جزء من الطبيعة خاضع لقوانينها إلا أنه قادر على تجاوز النظام الذى يشمل بقية الطبيعة.

ولهذا كان الإبداع - وما يزال - مرتبطا بقدرة الإنسان على التجاوز. وبقدرته على الخروج عما هو مألوف إلى ما هو غير مألوف بالجديد الذى يتواصل بغير انتهاء. وبعبارة أخرى ارتبط الإبداع دومًا بسيكلوجية التمرد متجاوزًا سيكلوجية التوائم، لأن التوائم قهر واستسلام لما هو موجود، والتطور يلزم تغييرًا وتطويرَ الواقع على نحو أفضل.

وثمة تفاعل جدلى بين ما تولد ونحن مزودون به وبين ما نعيشه من بيئة لها مثيراتها ومواقفها ومحدداتها. وبصياغة أخرى نقول أن ثمة تفاعل بين الوراثة والبيئة، من شأنه - إن كان خصبا وإيجابيًا - أن يحقق للإنسان نموًا إبداعيًا مزدهرًا.

والإنسان هو ذلك الائتلاف الفريد من الجينات الوراثية التى تتفاعل مع محددات البيئة، حتى والإنسان مجرد نطفة فى قرار مكين.

وقد انقسم العلماء إزاء قضية الوراثة والبيئة إلى ثلاثة أقسام فى محاولتهم الإجابة عن: هل الوراثة هى المسئولة عن التباين فى عالم البشر أم البيئة؟ أم أن التباين مردود إلى التفاعلات الخصبة بينهما.

وللإجابة عن هذا التساؤل انقسم علماء النفس إلى ثلاثة أقسام: كل قسم يمثل وجهة نظر مباينة للآخرى.

الفريق الأول: ويمثله غلاة القائلين بالحتمية الجينية Genetic Determinism ويرون أن الاختلاف بين البشر مردود إلى الاختلاف فى الجينات الوراثية، وأن النمو ما هو إلا عملية تابعة لهذا المخطط الجينى الفريد.

الفريق الثانى: ويمثله غلاة القائلين بالحتمية البيئية Environmentalist وهم يرون أن الفروق الفردية فى العقل والمعرفة والشخصية والعمل، ما هى إلا نواتج للتعلم والخبرة المكتسبة.

الفريق الثالث: وهو يمثل الاتجاه الدينامى بين الفريقين، حيث يرجع الفروق بين الناس إلى التفاعل بين محددات الوراثة ومحددات البيئة فهناك القليل، بل القليل جدًا، من الخصائص الإنسانية التى ترجع إلى محددات الورثة، مثل لون العينين والشعر والبشرة.. الخ. وأن هذه الخصائص فى صميمها جوهرية وثانوية فى آن واحد، وأن التفاعل بين الوراثة والبيئة فى عالم الإنسان هو المسئول فعلا وواقعا عن كافة الاختلافات بين البشر.

ويميل كاتب هذه السطور إلى القول بجدلية التفاعل بين العقل كقاسم مشترك بين الناس جميعا وبين البيئة التي يسكن فيها ولنضرب مثلا على ذلك بالمصرى القديم الذى استطاع أن يطوع النهر العظيم لإرادته وأن يبنى على ضفافه حضارة عريقة ضاربة بجذورها فى عمق الزمان، ولم تستطع أى دولة أخرى من الدول التى يمر بها أن تبنى على ضفافه حضارة مثلما فعل المصريون. ومن ثم فمصر هبة النيل والعقل المصرى معًا.

ومع هذا فإن القائلين بالحتمية الجينية يرون أن الوراثة تمثل الحد الأعلى لما يمكن أن يحققه الإنسان بينما البيئة تؤثر فى نوعية الدرجة التى يمكن أن تحققها الإمكانات Potentiolities فها هو جنسن Gensen يعلن أن العوامل الوراثية تسهم فى ٨٠٪ من ذكاء الفرد، بينما تسهم البيئة فى ٢٠٪ من هذا الذكاء.

وللحقيقة فإن مفهوم الذكاء مجرد تصور افتراضى لا وجود له أصلا ونستدل عليه بأعمال العقل الإنسانى، ولهذا عندما سئل بينيه مصمم مقياس الذكاء الشهير عما يقصده بكلمة الذكاء إجرائيا. أجاب: إن الذكاء هو ما يقيسه مقياسى.

يقول ماينار سميث Maynard Smith فى كتابه (التطور والتاريخ):

(إن الفرق الجينى لم يكن مسئولا عن تفوق العرب فى الأبحاث العلمية بالمقارنة مع أوربا الغربية قبل ألف عام، ولا عن انقلاب هذا الوضع).

ولعل فى اختراع (الصفر) ما ينهض دليلا على أن العقل الإنسانى واحد وأنه معطى أولى للإنسان، فالذى اخترع الصفر هم هنود

المايابهو ندوراس جنوب جواتيمالا بأمريكا الجنوبية ونقل هذا الاختراع إلى الهند بعد خمسة قرون، ثم نقله العرب عن الهنود، ونقلوه بدورهم إلى أوربا.

فالصفر الذى يبدو وكأنه شئ بسيط، قد اختزل العمليات الحسابية وحقق للإنسانية وثبات كيفية فى طريق التقدم، ولنا أن نتصور حال العالم بغير صفر.

فثمة أوهام ينبغى التحرز منها مثل مفاهيم العبقرية الموروثة على النحو الذى ارتآه جالتون والذكاء الجينى الذى أكد على وجوده سلسلة طويلة من العلماء، بداية من هربرت سبنسر الفيلسوف الإنجليزى الشهير وانتهاء بـ ايزنك عالم النفس البريطانى الذى أكد على ما قاله جنسن Gensen من أن الذكاء وراثى بنسبة ٨٠٪ وأن تأثير البيئة لا يزيد عن ٢٠٪.

وعلى أية حال فإن مفهوم الذكاء قد استخدم على أنحاء شتى لتبرير التمييز العنصرى، ولتأكيد تفوق شعب على شعب آخر، ومن ثم تبرير الاعتداء على الشعوب المفترض أنها أقل ذكاء واقرار اللامساواة بين البشر، باعتبار أن الطبقات الدنيا فى المجتمع هم ضحايا الجينات الوراثية.

وصاحب هذا الرأى هو أرثر جنسن الذى أعلن صراحة أنه مع النظرية الجينية وضد النظرية البيئية ففى رأيه أن الجينات هى المسئولة عن اللامساواة بين البشر وعن التخلف فى التعليم، ومن ثم فالطبيعة هى

العلة الأولى للتمييز العنصرى، وعلى ذلك يقرر جنسن أن التفكير وهو جوهر العملية التعليمية لا يعلم، وأن الذكاء موروث بنسبة ٨٠٪، وتأثير البيئة لا يزيد نسبته عن ٢٠٪ ومن ثم يصبح التعليم ترفًا لأنه لا يحدث أى تغيير.

وفى عام ١٩٧٤ نشر ليون كامين Kamin كتابا بعنوان (العلم وبوليتيكا قياس الذكاء) يجيب فيه عن سؤال واحد هل نسبة الذكاء موروثة؟ جواب الرأى الشائع أن الذكاء موروث بنسبة ٨٠٪، أما كامين فيرى أن هذه النسبة ليس لها سند تجريبى، وهى مردودة إلى الالتزام بوجهة نظر اجتماعية محددة وهى أن الطبقات الدنيا هم ضحايا الجينات الوراثية ومعنى ذلك أن قياس الذكاء مسألة سياسية.

أما (ايزنك) Eysenck فيؤيد النظرية الجينية ولكنه ينكر ما يترتب عليها من تمييز عنصرى بين الناس.

وعلى أية حال فإن الذكاء مفهوم افتراضى استخدم لتبرير سياسة التمييز العنصرى ولتبرير تقدم شعب على آخر ومن ثم ينبغى تجاوزه وعدم ربطه بالإبداع. لأن الإبداع هو نتاج العقل، والعقل الإنسانى يسير على نحو واحد فى جميع الموضوعات، لأنه أداة الإنسان للوصول إلى الحق، وهذه الأداة إنسانية محضة، وأن العقل قدرة يجب تدريبها كى تنمو، وأنه يحتاج لبيئة إبداعية كى يزدهر ويقدم إبداعاته الخلاقة وليس أدل على ذلك من العالم المصرى الشهير أحمد زويل، فهو مصرى المولد والمنشأ، بيد أنه حينما وجد بيئة إبداعية تتيح فرصا للإبداع تفجرت

إمكاناته وإبداعاته العلمية، فليس الأمر مرتبطًا بجينات مصرية أو أوربية أو أسيوية.

ونصل إلى النقطة الثالثة وهي أن:

العقل الإنساني واحد، ووحدته تعني أن حضارة الإنسان حضارة واحدة، فنحن نعيش حضارة إنسانية واحدة، صنعها الإنسان على مر عصوره، بيد أننا نعيش ثقافات متعددة. والثقافة بطبيعتها لا تسافر ولا ترحل ولا تتعولم.

تفسير ذلك:

إن العقل الإنساني واحد، ولكنه محكوم بثوابت الجغرافيا والثقافة ولهذا فإن العقل المصرى في قمة توهجه الحضارى فى مصر الفرعونية استطاع أن يقدم إبداعاته الخلاقة وأن يقيم حضارته على ضفاف النيل، وأن يجعل من مصر قبلة للعلماء وللرسل أيضًا.

وفى العصور الوسطى الإسلامية ازدهر العقل الإنسانى، واستطاع بمساحة التسامح وحرية البحث أن يتمثل ويهضم التراث الإنسانى القديم وأن يضيف إليه وأن ينقله إلى أوربا عبر معابر حضارية وتنويرية فى الأندلس وطليطلة وقرطبة.

وانتقل العقل الإنسانى للإقامة فى أوربا بعد طول غياب بفعل الصراع والتوتر القائم بين الإبداع العقلى والجمود الفكرى المتمثل فى السلطة الدينية وقتئذ والتى أعدمت برونو وحاكمت جاليليو، ودفعت ديكارت أن يُهرب كتابه (العالم) إلى بلد آخر هو هولندا!

ولم يتمكن العقل الإنسانى من الإقامة فى أوربا إلا على يدى فلاسفة التنوير الذين استطاعوا أن يطهروا هذا العقل من الأغلال التى تكبله وتحرمه من تقديم تجلياته الإبداعية، وكانت النقلة التنويرية على يد ديكارت وفرنسيس بيكون وكانط وفولتير وغيرهم من الفلاسفة العظام.

وصك كانط للعصر شعاره: كن جريئا فى استخدام عقلك! فلا سلطان على العقل إلا العقل ذاته، وأن العقل هو السيد الذى ينبغى أن يطاع وأن هذه السيادة لا تتحقق إلا فى بيئة تشجع على الإبداع بالتسامح بين الأنا والآخر وتجاوز الجمود الذهنى والأفكار المطلقة. ومن ثم يستطيع العقل أن يقدم إبداعاته!

وتأسيسا على كل ما سبق نقول:

إن الإبداع هو جوهر وجود الإنسان!

فالإنسان يولد وهو مزود بقدرات عقلية متميزة وبإمكانات تتواصل بغير انتهاء ومواهب شتى، وخيال خصب، وهذه القدرات وتلك المواهب تظل خبيئة طى النفس باحثة عمن يخرجها من حيز الكمون إلى حيز التحقق الخلاق فى الواقع.

وعلى هذا، فإن الناس مبدعون بطبيعتهم، لأنهم يملكون العقل والقدرة والإمكانية، وتلك هى (المساواة) التى تجمع الناس حول قاسم مشترك واحد ينهلون منه هو الإبداع.

وما الفروق بين الناس إلا دليل على أن فرص تنمية القدرات والإمكانات غير متكافئة بين الناس، ثم إن البيئة المخصبة للإبداع،

الحيِّلى بأجنة المستقبل والمفجرة لإمكانات الإنسان قد تكون موجودة في موقع وغائبة عن موقع آخر فيزدهر الإبداع هنا ويخبو هناك.

وغياب هذه البيئة الإبداعية من شأنه أن يكثف على جانب واحد من جوانب المعرفة، وهو التفكير الذى يقوم على الحفظ والتذكر وحشو الأدمغة بالمعلومات في مقابل التفكير القائم على التلقائية والمرونة والرغبة في الاستكشاف والأصالة فى التعامل مع الأشياء والموضوعات، والخيال الخصب المولد للمعرفة.

يقول أنشتين: إن العلم ثمرة الخيال ويحكى قصة اكتشافه لقانون النسبية فيقول: (كنت أجلس على قمة تل، أتأمل الفضاء وعيناى نصف مغمضتين وإذا بأشعة الشمس تداعب رموش عينى وتتفرق إلى آلاف الأشعة) وهنا بدأ يسأل نفسه، عمّا يمكن أن يحدث لو أنه استطاع أن يمتطى أحد هذه الأشعة ويسير معها فى اتجاهها وأخذه خياله فى رحلة الكون واكتشف أن ما وصل إليه بتفكيره عن مصير تلك الرحلة الخيالية، يتعارض مع دراسته السابقة فى علم الفيزياء، فبدأ يراجع أفكاره السابقة، وأعاد صياغة فكره في صورة نظرية جديدة هى نظرية النسبية التى أحدثت هذا التطور فى حياتنا المعاصرة.

ولم ينسب أنشتين نجاحه إلى تفوقه كعالم فى الرياضيات أو الفيزياء، وانما إلى قدرته على التخيل.

وتركيز أنشتين على الخيال يعنى أنه وسيلة لتحقيق الإبداع ولتأكيد فاعلية العقل، فعن طريق التخيل يمكن للعقل تجاوز ما هو قائم إلى

ما هو قادم، ذلك الذى يتجسد كمستقبل يمكن تجاوزه أيضا، فالخيال كان وما يزال شرطا ضروريا لتحقيق الإبداع.

ومفهوم الإبداع فى ضوء نماذج البحوث المعاصرة فى حاجة إلى إعادة رؤية حتي يمكن من خلاله التنبؤ بالإنجازات العلمية وإمكانية تفسيرها تفسيرا علميًا. وقد أكدت دراسات جيلفورد عن التفكير الإنفاقى أو الاتباعى أو المحدد وهم جميعا ترجمة لكلمة Convergent (الذكاء) والتفكير الافتراقى أو التغييرى أو المنطلق أو الإبداعى Divergent إنهما ضدان، فالإبداع على الضد من الذكاء، فقد تكون ذكيا وفقا لدرجات مقاييس الذكاء ولكن لست مبدعًا.

والطفل يولد وهو مزود بمقومات الطبيعة الإنسانية فى أنقى صورها، مزود بالتعطش المعرفى والتلقائية المبدعة والميل إلى التفكير المجرد وإلى المرونة فى صياغة المشكلات، والأصالة فى أساليب حلها.

وعلى هذا فإن الإبداع يفجره الشوق الدائم إلى المعرفة، والدافع إلى الاستكشاف واختراق المجهول، والمخاطرة فى سبيل المعرفة، فلولا هذه المخاطرة الإبداعية ما استطاع الإنسان أن يخرج من الأرض بجاذبيتها إلى أفلاك السماء أو يرتاد الجبال أو يستكشف القارات، وأن يغوص فى أعمق أعماق البحار والمحيطات باحثا ومنقبًا ومخاطرًا، وقد أصاب نيتشه الفيلسوف الألمانى حينما قال: (كى تجنى أسمى ما فى الوجود من ثمرات. عش فى خطر).

والخطر هنا إبداعى يستنير بالعقل!

ثم هناك ضرورة إثارة المشكلات العقلية وتحديد الأهداف، والتسامح إزاء الغموض وعدم اليقين وعدم المسايرة التى تجعل الإنسان خاضعًا للمألوف لا ينشد التطور والتغيير.

والطفل الصغير يتصف بالتلقائية، والرغبة فى اقتحام المجهول، وهو يتعلم من البيئة المحيطة به، وإذا سمحت له الظروف، فإنه يستطيع أن يستثمر طاقاته الخلاقة فى سن مبكرة.

لقد بدأ جون ستيوارت مل دراسته للآداب اليونانية وهو فى سن الثالثة وما أن بلغ الثامنة حتى كان قد قرأ كل مؤلفات هيرودوت، ومحاورات أفلاطون الست الأولى وتفجرت إمكاناته الإبداعية فى سن مبكرة.

فما الذى يجعل طفلا كجون ستيوارت مل يبدع وهو صغير، ولا يجعل غيره من الأطفال يصلون إلى ذلك.

السبب يكمن فى البيئة المولدة للإبداع المفجرة للإمكانات، الدافعة إلى المعرفة.

وماذا عن أطفالنا ونحن نعيش ما يمكن تسميته بجيل الشاشة الصغيرة المتخم بالصور المرئية والذى هضم آلاف الساعات من العروض التليفزيونية متشرباً ما فيها.

لقد أصبح (التليفزيون) بيئة تربوية للطفل، ومن ثم يصبح على الإعلام أن يكون فى خدمة قضايا التعلم وتكنولوجيا المعلومات وحرية

التعبير. فلم تعد العدالة الاجتماعية تكمن فى إعادة توزيع الثروة فحسب، وإنما أيضا فى توزيع المعلومات ووسائل الإعلام التى تنتجها، ومن هنا تستند الحرية والعدالة الاجتماعية بشكل متزايد على الطريقة التى يعالج بها كل مجتمع ثلاث قضايا: التعلم وتكنولوجيا المعلومات بما فى ذلك وسائل الإعلام وحرية التعبير.

والإبداع ليس عملية غامضة يصعب تحليلها عقليا، فقد أكدت البحوث التى أجريت على المبدعين أن الإبداع يمكن تحليله عقليا، ويمكن فهم العمليات المعرفية والقوى الدافعة والمؤثرات البيئية والخيال الخصب والمكونات النفسية والشخصية التى تميز المبدع.

والإبداع ليس مقتصرا على الموهوبين والنخبة، فكل إنسان يولد وهو مهيأ للتفكير بأسلوب إبداعى، فالإبداع يمكن توليده ويمكن نشره بين الجماهير وتهيئة الناس على العيش وفقا لأسلوب التفكير العلمى والتفكير الناقد، بتفعيل القدرات الإبداعية ومن ثم يكون الإبداع للجميع. الإبداع الجماهيرى، وهذا لن يتحقق إلا إذا بلغنا الوعى بأن:

الزمن شىء نادر يمكن استثماره، فالزمن من أهم مقومات الإبداع وإهداره إهدار للإمكانات والقدرات والعقل المبدع. ومن خلال بيئة مبدعة يمكن تفجير الإمكانات والقدرات الخبيئة، أى تفجير ما هو موجود بالقوة فى صلب تكويننا ليكون بالفعل فى واقعنا.